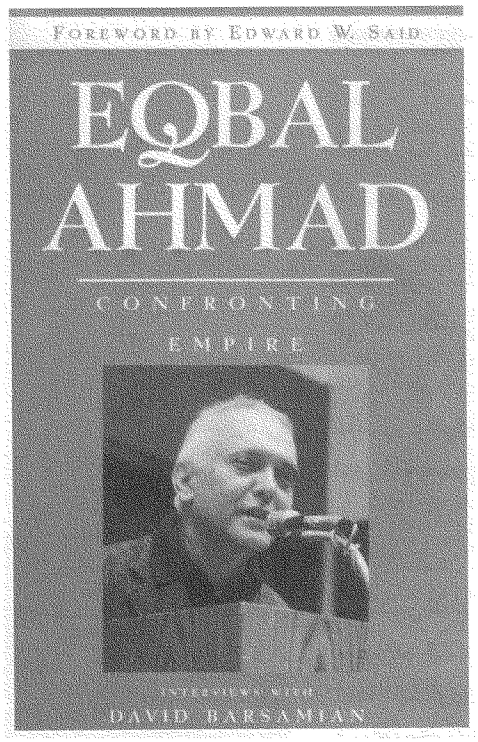

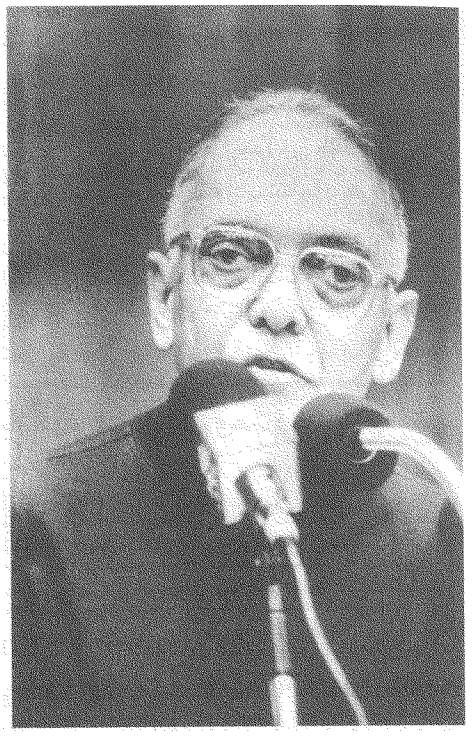

حوار شامل مع أقبال أحمد

■ فكِّرْ نقديّاً، وجازفْ! ■

في الصفحات التالية مقتطفاتٌ من الفصل الأوّل من كتاب عنوانُه: إقبال أحمد: في مواجهة الإمبراطوريَّة (مقابلات مع دايفيد برسميان). وقد صدر الكتاب عام ٢٠٠٠ عن منشورات پلوتو في لندن.

أهميَّة الكتاب تكمن في أنَّه المرجع الأوحد لآراء هذا المثقف والمناضل الباكستانيّ العظيم. فقد قضى إقبال سحابة عمره وهو يحاضر، أو ينصح القادة والمثقفين والرؤساء، أو يناضل في الجزائر والولايات المتحدة، أو يعلِّم في الجامعات والكليّات. وذاتَ يومٍ حثّه صديقُ عمره، إدوارد سعيد، على «ألاّ يترك كلماته في مهبّ الريح، بل ولا مسجَّلةً في أشرطة، وإنَّما مجموعةً ومنشورةً في كتب متعدِّدة لكي يتسنّى لكلّ واحدٍ أن يقرأها. وعندها سيُدرِك أولئك الذين لم يحظَوا بمعرفتك أيّ رجل مميَّزٍ وموهوبٍ هو أنت.»

أجرى الحوار: دايڤيد برسميان

نقله إلى العربيَّة: سماح إدريس

الصفحات التالية تتناول موقف إقبال من غاندي وبعض القيادات التاريخيَّة الهنديَّة الأخرى، وتتحدَّث عن رأيه في حركة الطالبان الأفغانيَّة، والحركات الإسلاميَّة الحديثة، وإسرائيل، ومسار منظمة التحرير الفلسطينيَّة. ويتطرَّق إقبال أيضًا إلى صداقاته بكل من تشومسكي وفانون وادوارد سعيد ومالكوم أكس.

واحد من الأحداث الدقيقة في طفولتك كان مقتلَ والدك.

لقد أدّى هذا الحدثُ دورًا هامًّا [في حياتي]. إذْ عدا عن تركه جرحًا غائرًا جدًّا فيَّ طفلاً، فلا بدّ أن أكون قد تشرَّبتُ ـ عن غير وعي ـ استنتاجاتٍ محدَّدةً عن الحياة. وأحدُ هذه الاستنتاجات هو أنّ الطبقة أهمُّ من علاقات النَّسب، وأنّ المِلْكية أعزُّ للمرء من الصداقة أو الولاءات؛ والسبب هو أنّ بعض الأقارب أنفسهم كانوا ضالعين في مقتل أبي: فلقد أحسُّوا أنّ حقوق ملْكيّتهم تهدِّدها سياساتُه، لأنّه كان منخرطًا في العمل القوميّ ومَنْحِ الأراضي، مدشِّنًا بذلك نموذجًا «سيِّئًا.»

حين تَنْظر إلى الوراء، إلى فترة الخمسين سنة تلك في آسيا الجنوبيّة، حيث المهاتما غاندي، وحركةُ «اتركوا الهندَ،» ومن ثمّ تقسيمُ الهند إلى دولتَيْن، وحمّامُ الدم الذي أعقبه، أكان ثمّة مخرجٌ من ذلك كلِّه؟

أعتقد ذلك. حين تكون جاليتان قوميّتان قد تعايشتا حقّاً سبعمئة سنة فلن يكون مستحيلاً إيجادُ سبلٍ غيرِ الانفصال. أنا لا أفهم لِمَ فشلتْ قياداتُ الهند، المسلمةُ والهندوسيّةُ معًا بما فيها قيادةُ غاندي، في أن تَضْمن للهند استمرارَها التاريخيَّ المتمثّل في جاليتَيْن ـ هندوسيّة ومسلمة ـ متعايشتَيْن جنبًا إلى جنب. لقد كانت هناك تأزُّماتٌ في علاقاتهما، كما هو شأنُ كلّ العلاقات، ولكنَّ هذَيْن الشعبَيْن عاشا إجمالاً متعاونيْن، ونشأتْ في غضون ذلك أمورٌ كثيرة: فقد نهضتْ حضارةٌ بأكملها؛ وانبثقتْ لغةٌ جديدة هي الأورديّة التي وفّقتْ بين ما جاء به المسلمون وما وجدوه في شبه القارة الهنديّة وصارت لغةَ تواصلٍ مشتركةً؛ وبزغتْ فنونٌ جديدة ونوعٌ جديد من الموسيقى ـ فالموسيقى الهنديّة الشماليّة مختلفة جدّاً عن التراث الكرنطيّ الجنوبيّ القديم.

الطبقة أهمُّ من علاقات النسب، والمِلْكيّة أعزّ من الصداقة أو الولاءات

لقد كان تجنُّبُ التقسيم أمرًا ممكنًا. ولكنْ، مثلما تنبّأ الشاعرُ والكاتبُ العظيم رابندراناث طاغور، لن يتأتّى ذلك ما لم تَفْهم الحركاتُ الهنديّةُ المعاديةُ للإمبرياليةِ ضرورةَ تجنُّب الإيديولوجيا القوميّة. لقد رفضنا الإمبرياليّة الغربيّة، ولكنّنا في هذه الأثناء اعتنقنا القوميّةَ الغربيّة برمّتها.

إنّ القوميّة إيديولوجيا تسبِّب النزاعَ. ولهذا فإنّ غاندي مسؤول ـ شأنه شأن آخرين بمن فيهم مؤسِّسُ باكستان محمد علي جناح، إنْ لم يكن بدرجةٍ أكبر منهم ـ عن الإسهام في تقسيم الهند. ثمّة الآن حديثٌ لافتٌ متوفِّرٌ لدينا بين طاغور وغاندي، وفيه يحذِّر الأولُ الثانيَ قائلاً: «انظرْ. إنّ السياسة التي تُدْخِلها إلى الهند ستقسِّم المجموعتَيْن القوميّتَيْن.»

وماذا عن استعمال غاندي للمصطلحات الهندوسيّة، وزخارفِ الهندوسيّة، ومفاهيمَ مثل «حُكْم الرام،» واستخدامِه للموسيقى الابتهاليّة؟ أتعتقد أنّ هذا أسْهم في إزعاج بعض المسلمين؟

نعم. ولكنْ كي لا يُفهم أنّ غاندي طائفيّ هندوسيّ (وهو الرأيُ القوميُّ الباكستانيُّ ضدّه)، فإنّ عليَّ أن أقول إنّه قبل كل شيء انتهازيٌّ معادٍ للإمبرياليّة. وتلك المسحة من الانتهازيّة في المهاتما غاندي هي التي قادتْه إلى اتّباع سياسةٍ تُرَوْحِنُ وتُطيِّفُ السياسةَ في الهند. فلأعطِكَ مثالَيْن على ذلك.

كان غاندي عند عودته إلى الهند قادمًا من جنوبيّ أفريقيا عام ١٩١٥ منخرطًا انخراطًا شديدًا في سياسة المقاومة السلبيّة؛ فقد كانت فكرتا «اهيمسا» (اللاعنف) و«ساتياغراها» (المقاومة السلبيّة) قد تطوّرتا في عقله أثناء السنوات التي قضاها في جنوبيّ أفريقيا. ثم جاء إلى الهند وأحْدث في المشهد المحليّ أثرًا نَيْزكيّاً. وكان صعودُه دراماتيكيّاً: فبحلول عام ١٩١٦ كان غاندي قد صار بطلاً قوميّاً.

كانت القضيةُ الأولى التي تلقّفها غاندي هي إنقاذ الخلافة في تركيا. وهذه هي واحدةٌ من أكثر اللّحظات رُعْبًا في تاريخ الهند الحديث. ففي الشرق الأوسط كان العثمانيُّون ينهارون، ولم تكن للقوميّة التركيّة ـ التي تقودها جماعةُ «تركيا الفتاة» ومِنْ بَعْدها كمال أتاتورك ـ أيُّ فائدةٍ للسلطان العثمانيّ. وفي الهند راح المسلمون يصوِّرون سقوطَ السلطنة العثمانيّة حصيلةً للمكائد البريطانيّة، فبدأوا حركةً معاديةً للبريطانيّين باسم إنقاذ الخلافة في تركيا. فانتهز المهاتما غاندي الفرصة. أمامك، إذنْ، هذه الحركةُ الهائلة حيث المسلمون معبَّأون تمامًا، وغاندي يقودها بمعيّة الأخوَيْن عليّ ـ محمد وشوكت ـ، وحزبُ

المؤتمر يُلقي بدعمه مناصِرًا «حركةَ الخلافة،» ومولانا عبد الكلام آزاد ـ الذي سيُصبح لاحقًا رمزًا رئيسيًّا في المؤتمر القوميّ الهنديّ ـ يصبح زعيمًا لهذه الحركة. «جناح» يحذِّر غاندي: «لا تفعلْ هذا. إنّ ما تفعله هو استخدامُ الدين في السياسة. إنّه استخدامُ الدين أو استخدامُ إغراءاته للتعبئة ضدّ البريطانيِّين. ولكنْ يومًا ما سينقلب هذا علينا.» واستخدم جناح تلك العبارة الشهيرة: «إنّ السيد غاندي يُروحِن السياسةَ الوطنيّةَ الهنديّة.»

لاحقًا سيَحْمل غاندي كلَّ الرموز الهندوسيّة، لا لأنّها رموز هندوسيّة بل لأنّها كانت رموزًا لغالبيّة الناس، فلديها إذن القدرةُ القصوى على التعبئة. وفي هذه الأثناء أُصيب المسلمون بالذعر الشديد لكون تقاليدهم الثقافيّة وثقافتهم الجامعة تُنحّى جانبًا. ولم يكن سبب ذلك أنّ غاندي هندوسيّ أو طائفيّ بقدرِ ما يُعزى السببُ إلى أنّه انتهازيّ معادٍ للإمبرياليّة؛ فهو يفعل أيَّ شيء ضمن فلسفته اللاعنفيّة من أجل تحريك الجماهير.

يبدو لي ذلك نذيرًا بما سيَحْدث لاحقًا أيضًا، وفيه تناقضٌ هائل متأصّلٌ في غاندي. ويتمثّل ذلك في أنّه، من جهة أولى، ناقدٌ لنظامٍ إمبرياليٍّ محدَّد، هو الحكم البريطانيّ؛ ولكنّه، من جهة ثانية، يَدْعم نظامًا إمبرياليًّا آخر منحلاً ومتفسِّخًا، هو الإمبراطوريّة التركيّة العثمانيّة. فكيف كان سيقوّض الحكمَ البريطانيَّ بدعمِ بنيانٍ إمبرياليٍّ آخر؟

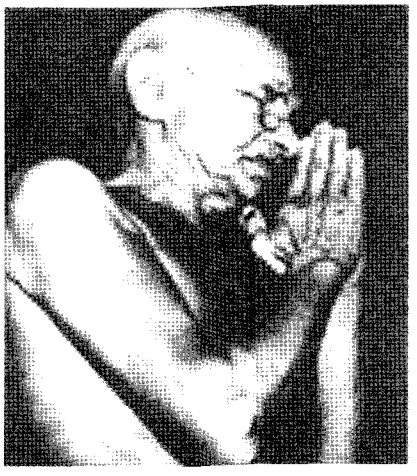

سيفعل ذلك بأن يَعْمد إلى تحريك الجماهير المسلمة في الهند، مدركًا أنّ الوحدة الهندوسيّة ـ المسلمة شديدةُ الأهميّة لنجاح الحركة المعادية للكولونياليّة. لقد كانت تلك بالنسبة إليه لحظةَ دعم قضيّةٍ استحوذتْ على خيال المسلمين الهنود، وليبيِّن لهم «أنِ انظُروا، إنّنا إلى جانبكم، أنتم أيضًا. أنا أستطيع أن أدعم قضيّتكم.» ولكنْ ما لم يفكّر فيه غاندي هو ما سيحدث على المدى البعيد، وما سيكون وقعُ ذلك [في المستقبل]. وأمّا «جناح» فقد فكّر في ذلك حقًّا.

غاندي مسؤول ـ شأنه شأن آخرين ـ عن تقسيم الهند

كما أنّ طاغور مثلاً شَعَرَ أنّ حركة غاندي في «عدم التعاون» مع البريطانيِّين ستؤدّي هي أيضًا إلى تفريق الهندوس عن المسلمين، وأنّها ستَخْلق شقوقًا عميقةً في المجتمع الهنديّ. وبمقدورك أن ترى تفكير طاغور هذا في روايته **الوطن والعالم**، التي أَخْرجها ساتا ياجيت راي فيلمًا بالعنوان ذاته. فعام ١٩٢٠ قال طاغور إنّ القوميّة تميل إلى خلق مشاعر من الاستبعاد والتفريق المستنديْن إلى الخلافات لا إلى الأمور الجامعة. ورأى أنّ اللاعنف المنظَّم الانفعاليّ المستند إلى الرموز الدينيّة سيفرِّق هو أيضًا وسيَنْثر بُذورَ العنف في الهند. إذن، جذورُ العنف تقع في صميم اللاعنف الذي كان يحرّكه غاندي على ذلك المستوى الضّخم. فحركة غاندي الرافضة للتعاون مع الإنكليز، وإحراقُ البضائع المستوردة، ضربا الطبقاتِ الاجتماعيّةَ على نحوٍ غير متساوٍ: فالمسلمون الفقراء في البنغال أصيبوا بطريقةٍ تختلف عن هندوس الطبقة الوسطى الذين يسيطرون على تلك المنطقة.

في منتصف تموز/يوليو ١٩٢١ التقى الرجلان في منزل طاغور في كالكوتا. قال غاندي: «ولكنّي، يا غورديف، حققتُ الوحدةَ الهندوسيّة ـ الإسلاميّة.» فأجاب طاغور: «حين يَخْرج البريطانيُّون أو يَطْردهم الوطنيُّون الهنود ماذا سيحدث؟» غاندي: «ولكنّ برنامجي من أجل نيل الحكم الذاتيّ يَسْتند إلى مبدإ اللاعنف.» طاغور: «تعالَ، يا غاندي، تعالَ. انظرْ مِنْ على حافة شرفتي. تطلَّعْ إلى تحت، وانظرْ ما يهيِّئه أتباعُك اللاعنفيُّون المزعومون.» ثم يريه طاغور البازارَ حيث تُحرق الثيابُ على يد الناشطين الرافضين للتعاون مع الإنجليز. وهنا يسأل طاغور غاندي: «أتظنّ أنّك تستطيع أن تكْبح مشاعرَنا العنيفةَ بمبادئك اللاعنفيّة؟ لا، لا أظن ذلك. أنتَ تعرف أنّك لا تستطيع ذلك.» وعلى هذه الموضوعات الرئيسة سيواصل طاغور جدالَه مع غاندي عامَيْن تاليَيْن.

ما حدث بعد ٢٦ سنة، أيْ في عام ١٩٤٧، هو ما كان طاغور بعينه الرائية قد تنبّأ بحصوله. لقد كان الشاعرُ يفوق المهاتما معرفةً!

(...)

لو كان غاندي الرمزَ الطائفيَّ لحزب المؤتمر الهنديّ، أيكون من العدل أن نَصِف جواهر آل

نهرو بأنّه القائد العلمانيّ لهذا الحزب؟

لم يكن غاندي طائفيّاً ولا رمزًا للطائفيّة. صحيح أنّ بعض سياساته، وبعضَ الثقافة التي أَنْتجها، قد أسهمتْ ـ عن غير وعي، ولا علمٍ، ولا قصدٍ ـ في صعود الطائفيّة على الجانبَيْن المسلم والهندوسيّ معًا. غير أنّه لم يكن طرفًا فيها قطّ. لقد كان الطائفيُّون من الجهتَيْن، من جهة الهندوس وجهة المسلمين معًا، يكرهونه لأنّهم اعتبروه رمزًا كليّاً شاملاً وقُتِل غاندي على يد عضوٍ ينتمي إلى حزبٍ أصوليّ هندوسيّ، راشترايا سوايامسڤاك سانغ. وفي حين كان غاندي يموت قائلاً «هِه، رام [يا اللّه]،» كان رجل اعتَقَدَ أنّه يَتْبع «رام» يقتله.

أمّا نهرو فكان قائدًا قوميّاً متغربنًا إلى درجةٍ كبيرة، ملتزمًا بوضوح كبير هندًا علمانيّةً تحت قيادة المؤتمر الوطنيّ الهنديّ. إنّي أكنُّ لنهرو احترامًا عميقًا كإنسان، ولكنّي بعد ذلك أعتقد أنّ علينا أن نُقرّ بأنّه أثناء حكمه حدثتْ بعضُ الأمور التي كنتُ أتوقّع أن يتحاشاها.

فمثلاً تكفّل رئيسُ الهند في تلك الأيام المبكّرة، راجندرا پراساد، بإحياء معبد سومناث في ولاية جوغارات والاحتفالِ بإعادة افتتاحه. وكان هذا المعبد قد دمّره الغزاةُ الأفغانُ في القرن العاشر. فوافق نهرو على خطّة الرئيس. ولم يكن ينبغي أن يفعل ذلك: ذلك أنّه ليس من عمل الدولة البدءُ بتصحيح الأخطاء التاريخيّة التي ارتُكبتْ قبل ألف عام أو ألفيْن. ليس مِنْ عمل الدولة أن تصحّح أخطاءً تاريخيّةً ذاتَ طبيعةٍ دينيّةٍ.

■ ليس من عمل الدولة أن تصحّح أخطاءً تاريخيّةً ذاتَ طبيعةٍ دينيّةٍ ■

لم أكن مُدركًا لهذه الظاهرة حتى حلول عام ١٩٩٠ تقريبًا. كنتُ آنذاك أبحثُ في ما سيصبح حدثًا مدهشًا في أيودهايا في عُطْار پرادش عام ١٩٩٢، عنيتُ: تدميرَ الجامع البابريّ التاريخيّ. فالناشطون الذين كانوا يواصلون تدميرَ الجامع البابريّ واصلوا تذكيري بأنّ هذا سَبَقَ أن حَدَثَ على يد حزب المؤتمر أيضًا: أيْ تصحيح الأخطاء بإعادة بناء المعبد في سومناث.

(...)

فرانتز فانون، مالكوم أكس، نوم تشومسكي، إدوارد سعيد

كانت لك في حياتك لقاءاتٌ منيرة مع بعض الوجوه اللافتة مثل فرانتز فانون في الجزائر.

حين التقيتُ فانون لم يكن قد علم بعدُ بأنّه مصابٌ باللوكيميا [ابيضاض الدّم]، ولكنّه كان يعلم أنّه لم يكن صحيحَ الجسم. وما هي إلاّ شهورٌ حتى تمّ تشخيصُ المرض، فراح يسابق الزمن لكي يَعْصر ما تبقى من قطرات حياته. لقد كُتِبَ كتابُه **المعذَّبون في الأرض** في عجلةٍ كبيرة. ولقد غَيَّرت الجزائرُ فانون في وجوه عديدة.

بين الفينة والأخرى في أواخر الستينيّات شَرَعتُ أرى توازيًا ما بين حياة فرانتز فانون ومالكوم أكس. كانا شخصيَّتَيْن مختلفتَيْن جدّاً من حيث الطبقةُ الاجتماعيّة والخلفيّةُ التعليميّةُ. فقد كان فانون رفيعَ الثقافة، في حين لم يكن مالكوم يَمْلك أيَّ ثقافة. ما أثارني هو أنّ كليْهما حصّلا وعيَهما السياسيّ من خلال التمييز العرقيّ. كان وعيُهما وعيًا عِرْقيّاً تلقّياه في مجتمعَيْن يهيمن عليهما البيضُ، وهذان المجتمعان هما اللذيْن سَيَّسَاهما أولَ الأمر. لقد كانت سياستُهما بادئ الأمر مزيجًا من غضَبٍ صراحٍ وردِّ فعلٍ على العنصريّة، بل بلغتْ تلك السياسةُ حدودَ الانفصاليّة. وكلاهما اكتشف، من خلال نضالهما، الكونيّةَ الإنسانيّةَ في بني البشر. فمن خلال انخراطهما في عمليّة المقاومة ارتفعا عن مستوى عِرْقهما في إدراك الحقائق الاجتماعيّة والصراعات السياسيّة، وراحا يعتبران الطبقةَ ذاتَ أهميّة مركزيّة تفوق العِرقَ في فهم التصرُّفات البشريّة. إذن، في النهاية، بدأ كلاهما يُدْرك أنّ ثمّة مجاميعَ من الشعوب المقهورة تَكْتشف نفسَها وقوّتَها وإنسانيّتَها من خلال النضال؛ وأدركا أنّ الإنسان ما لم يقاومْ أو يناضلْ فلن يكتشفها؛ بل لن يكتشفَ إنسانيّته بالذات، دعْ عنكَ إنسانيّةَ الآخرين.

لقد اكتشف كلاهما أهميّةَ الطبقة والعلاقات الطبقيّة في صناعة المجتمعات. فالنقطة المهمّة مثلاً في الفصل الذي خصّصه فانون للعنف في **المعذَّبون في الأرض** أُسيئ فهمُها بشدّة وشوِّهتْ من طرف بعض الدارسين في الولايات المتحدة وفي أوروبا أيضًا. فهؤلاء رأوا في ذلك الفصل محضَ احتفالٍ بالعنف؛ وهو ما لم يكن كذلك، بل كان تركيزًا على أهميّة المقاومة والنضال في اكتشاف إنسانيّة الذات

وإنسانيّة الآخرين والوصولِ إلى اكتمال الذات الجمعيّة.

تجد تعبيرًا أوضح عن ذلك في عملٍ أسبقَ لفانون، هو **العام الخامس من عمر الثورة الجزائريّة**، الذي صَدَرَ بالإنجليزيّة تحت عنوان **كولونياليّة مائتة**. وفيه يتحدّث عن كيفيّة تحقيق المرأة الجزائريّة استعدادَها للتخلّي عن الحجاب طوعًا حين تَدْخل حلبةَ الصراع، وعن كيفيّة صيرورة الحجاب رمزًا للمقاومة مادامت هذه المقاومةُ غيرَ منظّمة؛ وذلك لأنّ التمسّك بالتراث كان السبيلَ الوحيدَ لكي يقول الجزائريّون «لا» لفرنسا ولهيمنتها الثقافيّة.

وفانون يفعل الأمرَ ذاتَه بالنسبة إلى استخدام الراديو قَبْلَ النضال الجزائريّ وبَعْدَه. فهو يبيّن أنّ الجزائريّين كانوا يرفضون الراديو أداةً في يد القامع، ولكنّهم استخدموه أداةً للتحرير ما إنْ دخلوا معتركَ النضال. إنّ علاقة المرء بالتكنولوجيا، وبالعادات الاجتماعيّة، وبرموز الكولونياليّة والقمع نفسِها، تتغيّر حين يَنْخرط في النضال. وتلك كانت النقطةَ التي عالجها فانون بشأن العنف، لا مجرد الاستغراق في جمال العنف. لقد أسيئ فهمُ فانون، كما أرى.

وظهرتْ أفكارُه التنويريّة الأخيرة في **المعذّبون في الأرض** في الفصل المعنون «أَشْراك الوعي القوميّ.» ومازلتُ أقرّر هذا الفصلَ للطلاّب حين أدرّس مساقات عن دولةٍ ما بعد الكولونياليّة. ففانون رأى بوضوحٍ أشراكَ القوميّة، والبناءَ الذي ستُنْتجه، والتبعيّاتِ التي ستُنشئها، والدولةَ ما بعد الكولونياليّة التي لن تكون أكثرَ من أداة جديدة للسيطرة الإمبرياليّة. لقد رأى ذلك كلّه. ورآها في انبثاق نخبةٍ متعاونة مع الاحتلال سمّاها «أولادَ الذوات على الخطوط الجويّة.» ورأيي الأخير في فانون هو أنّني كنتُ أتمنى لو عاش. لم يكن قد بلغ الأربعين حين مات.

هل عملتَ معه فعلاً؟

عملتُ معه بشكلٍ حميمٍ حوالى ستة شهور. كان يَرْأس مكتبَ المعلومات في جبهة التحرير الوطنيّ ويحرّر جريدتَها السريّة: **المجاهد**.

أثمّة ملاحظة تبديها على كتابه: جلد أسود، أقنعة بيضاء؟

إذا تناولتَ هذا الكتاب ثم قرأتَ كتابيْه الآخريْن: **كولونياليّة مائتة** أو **المعذبون في الأرض**، بل لو قرأتَ الافتتاحيّات التي كَتبها في **المجاهد** ونُشرتْ بالإنكليزيّة بعنوان **على طريق الثورة الأفريقيّة**، فسترى انتقالَ فانون من العِرْق إلى الطبقة، ومن العنف إلى إعادة بناء المجتمع، ومن ردّ الفعل إلى الإبداع. إنّ **جلد أسود، أقنعة بيضاء** كتابُ غضبٍ على ما يعانيه المرءُ من العنصريّة، والإذلال، والحطّ، وإهانةِ الذات، وإهانةِ الإنسانيّة. وهو غضبٌ يَبْرز عند أميلكار كابرال، وفي الأعمال المبكّرة ليوپولد سنغور، وعند مالكوم أكس. ويختبر مالكوم التحوّلَ نفسَه الذي اختبره فانون، ولكنْ من خلال تجربةٍ دينيّةٍ هي تجربةُ الذهاب إلى مكّة للحج. إنّ هذا الأمر لافتٌ للنظر. وكنتُ قد رأيتُ مالكوم قبل الحجّ وبعد أن عاد منه، ورأيتُ كيف تغيّر.

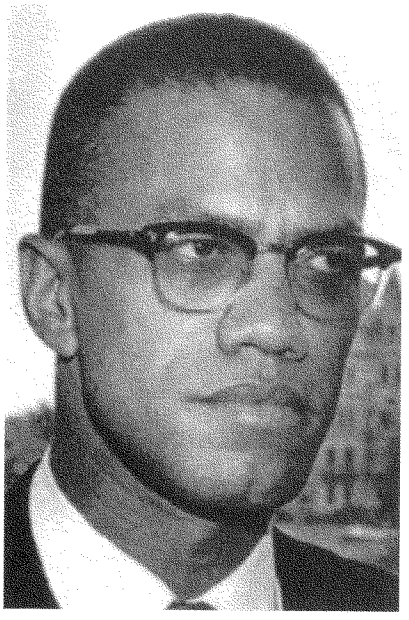

مالكوم أكس: كان وعيه عِرقيّاً، ثم اكتشف من خلال نضاله الكونيّةَ الإنسانيّةَ في بني البشر

في حال مالكوم قيل إنّه بسبب أدائه الحجَّ في مكّة قد انتقل من موقف قوميّ ضيّق إلى موقفٍ يعانق المنظورَ الكونيَّ الشامل.

كان مالكوم [قبل الحجّ] قد تحوّل إلى إيديولوجيا «أمّة الإسلام» العنصريّة. وكانت «أمةُ الإسلام،» بردّها على تجربة السود في معاناتهم عنصريّةَ البيض قرونًا بدأتْ بالعبوديّة، قد رفضتْ مجردَ فكرة أن يكون لها أيُّ صلة بالبيض. لقد كانت «أمّةُ الإسلام» أمّةً للسود، لا أمّةً للسود والبيض والسمر الذي يعيشون معًا ويعملون معًا. كانت حركةً انفصاليّةً سوداء، وكان مالكوم أكس سفيرًا للانفصال.

كانت «أمّة الإسلام» شبيهةً بالصهيونيّة كإيديولوجيا: حيث لا يكون اليهودُ آمنين وأصحّاءَ إلاّ إذا استطاعوا أن يُنْشئوا دولةً يهوديّةً إقصائيّةً [تَستبعد غيرَ اليهود]. وَحدَثَ أن فَعَلَ اليهودُ ذلك في فلسطين، ولكنّ ما فعلوه هو الإيديولوجيا نفسُها التي نجدها عند «أمّة الإسلام.»

كان مالكوم شخصًا منفتحًا جداً. وما اكتشفه عند ذهابه إلى مكّة هو أنّ الإسلام دينٌ غيرُ عنصريّ. ففي مكّة أتراكٌ وبوسنيُّون وسودانيُّون وسنغاليُّون وماليُّون وباكستانيُّون وصينيُّون واسكوتلنديُّون وكلُّ

أنواع الناس ـ من بيض وسود وصُفر وسُمر ـ يتجمّعون في مكانٍ واحد، ويأكلون ويعيشون في المكان نفسه ويرتدون اللباسَ نفسَه، وقد صَعَقَه ذلك. وقال: «ليس من عِرْق هنا. ماذا يجري؟» وحين رَجَع [إلى الولايات المتحدة] قال: «ما وجدتُه أمرٌ ممكن الحدوث. لقد رأيتُ مجتمعًا يَعْمل دون أن يكون لديه شعورٌ بالأعراق المختلفة.»

ولكنَّ ما لم يُدْركه مالكوم هو وجودُ تقسيمٍ **آخر** هناك ـ ناتجٍ عن الطبقات ـ وهو تقسيمٌ امّحى أثناء حجّه القصيرِ حيث لا يُسمح لأحد أن يَسْأل «أأنت غنيّ أم فقير؟» غير أنَّ تلك اللّحظة كانت مهمَّةً جدّاً له. بل هو خَسر حياتَه نتيجةً لها.*

وبالمناسبة كنتُ قد التقيته حين كنتُ طالبًا في جامعة پرنستون وكانت پرنستون الجامعة الأميركيَّة الأولى، والمؤسَّسةَ غيرَ السوداء الأولى، التي جاء إليها مالكوم أكس وتحدَّث فيها، وقد شاركتُ في تنظيم هذه الزيارة.

أحدُ الوجوه التي برزتْ كثيرًا في حركة معاداة الحرب [ضدّ ڤيتنام] في الولايات المتحدة في منتصف الستينيّات كان نوم تشومسكي.

كان تشومسكي قبل عام ١٩٦٤، حين بدأتْ حركةُ معاداة الحرب بالبزوغ، قد غدا رمزًا تاريخيّاً بسبب إسهامه في حقل اللسانيّات الحديثة. وفي عام ١٩٦٧ كتب مقالةً في **نيويورك ريڤيو أوف بوكس** عنوانُها «مسؤوليّةُ المثقفين.»** وهي عملٌ لافت يَطْرح ببلاغةٍ فذّةٍ أنَّ الحرب الباردة دَمّرتْ وعيَ المثقفين وتقاليدَ المعرفة والبحث في أميركا وقَبلتِ المبدأَ اللازمَ لزومًا مطلقًا والمتمثِّلَ في طرح الأسئلة وفي الانشقاق [أو معارضةِ الإجماع]. كانت المقالة إدانةً للحرب الباردة، ولأثرها في الحياة الثقافيّة والفكريّة في أميركا، وإدانةً للمثقفين الذين وَقَعوا في هذا الشَّرك. وكانت ذات وقع جبّار.

حَدَثَ ذلك في وقت كنتُ قد بدأتُ أعرف أنّ تشومسكي ناشطٌ ثقافيٌّ. وخلال تلك الفترة من الحرب الباردة ظهرتْ مقالتان حظيتا بوقع هامّ على حركة معاداة الحرب: الأولى هي مقالة تشومسكي المذكورة؛ والأخرى كانت، بالمصادفة البحتة في رأيي، قطعةً كتبتُها أنا من قبلُ في دوريّة **دانايشن** عام ١٩٦٥ وعنوانُها: «كيف نَعْرف أنَّ الثوارَ ربحوا.» وهذه القطعة ترى أنَّ الولايات المتحدة خسرت الحربَ في ڤيتنام، وأنَّ كلَّ ما تستطيع فعلَه منذ ذلك الوقت فصاعدًا هو أن تَقْتُلَ، وأنَّ كلَّ القتل الذي ستَرتكبه لن يؤدّي إلى أيّ شيء. كان للمقالة وَقْعٌ، حتى إنَّ السيناتور ج. ويليام فولبرايت والسيناتور فرانك تشرتش استخدماها فورًا في الكونغرس في جلسات السماع الأولى الخاصة بحرب ڤيتنام.

أُوقفتُ بتهمة خطف هنري كيسنجر، وسُجنتُ، ثم خرجتُ بكفالة

وهكذا كنتُ قد علمتُ أمورًا عديدة عن «نوم.» وإذْ أتحدَّثُ إليكَ الآن فإنّي لا أَذْكر متى التقيتُه؛ فقد صادفتُهُ كما يُصادف المرءُ ريحًا أو هواءً أو مطرًا. ولعلّ لقائي إيّاه كان حدثًا طبيعيّاً في حياتي، إلى درجة أنّي لا أتذكّره أبدًا. وأما لقائي فانون فلم يكن طبيعيّاً إلى ذلك الحدّ، ولذا أستطيع أن أتذكّر لحظةَ التقائنا تمامًا.

قبل أن نلتقي، أنا و«نوم،» كنّا عضوَيْن في مجموعة من المثقفين المناهضين للحرب [الأميركيّة على ڤيتنام]. وكنّا قد تهاتفنا ستّ مرات ربّما أو أكثر، وقد التقينا في مكانٍ ما أيضًا.

في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧٠، بعد أن أُوقفتُ بتهمة خطف هنري كيسنجر (إلى آخر القصة المعروفة)***، سُجنتُ زمنًا قصيرًا، ثم خرجتُ بكفالة. كان نوم تشومسكي هو الشخص الثاني الذي سافر إلى شيكاغو لرؤيتي. فمكث في شقتي العارية على أرضيّتي الخشبيّة، ولم يَشْكُ، وتحدّثنا كثيرًا. وأمّا الشخصُ الأوّل الذي سافر إلى شيكاغو من دون أن يَعْرفني معرفةً حميمة، بل لمجرّد كونه رفيقًا لي في مناهضة الحرب، فهو ريتشارد فولك، الأستاذ في جامعة پرنستون.

وعلى مرّ السنوات أصبحنا، أنا و«نوم،» صديقيْن حميميْن. ولكنّ حياتَيْنا، ويا للأسف، هي من التنظيم بحيث إنّني لم أره كثيرًا. غير أنّنا نلتقي بين الفيْنة والفيْنة.

لتشومسكي مكانةٌ متفرّدةٌ في حياة الانشقاق داخل الولايات المتحدة اليوم. لماذا تعتقد أنَّ صوتَه الآن يبدو أكثرَ بروزًا، لا في إعلام التيار التقليديّ السائد، وإنّما يَقْرأ كُتُبَه ويَحْضر

* ـ الشائع أنَّ مالكوم أكس اغتيل على يد أحد عناصر «أمّة الإسلام» التي كان قد تخلّى عن إيديولوجيّتها الإقصائيّة. راجع الآداب ٧/٨، ١٩٩٩، حيث تجد حلقةً مخصّصةً لمالكوم أكس من إعداد وترجمة أيمن حنّا حدّاد. (المترجم)

** ـ راجعْ ترجمةً لها بقلم رئيس التحرير (الآداب ٥/٦، ١٩٩٣). (م)

*** ـ راجع افتتاحيّة پيرڤيز هودبهوي عن إقبال أحمد، في الآداب ٧/٨، ١٩٩٩، ص ٣، بترجمة رئيس التحرير. (م)

محاضراتِه عددٌ متزايدٌ من الناس؟

أعزو ذلك إلى ثلاثة أسباب: المثابرة والاتّساق والاستقلال. فتشومسكي، أولاً، لم يتلكّأْ يومًا، ولم يَفْقد الأملَ يومًا. فما إنْ حدَّد الوحشَ ـ وهو الإمبرياليّة ـ حتى لاحَقَه، أيّاً كان اللّبوسُ الذي ارتداه ذلك الوحشُ عبر الأزمان، سواءٌ أكان الإعلامَ أمَ النزعةَ العسكريّة أمَ التدخُّلَ [الإنسانيّ] أمَ العولمةَ.

ثانيًا، الاتّساق. فتشومسكي لم يتذبذبْ يومًا. لم يقع أبدًا في فخّ القول «سيكون كلينتون أفضل [من سواه]» أوْ «نيكسون كان سيِّئًا ولكنّ كارتر كان ذا رئاسةٍ أعْلَت من حقوق الإنسان.» في عمل تشومسكي اتّساقٌ في المضمون والموقف والرؤية. والاتّساق، بالطبع، يعني التكرار. وخلال الأعوام العشرين الأخيرة كرّر تشومسكي نفسَه كثيرًا، وهو أمرٌ لا يفعله في اللسانيّات. غير أنّه يعلِّم كثيرًا من الناس، وأنا لم أتعلَّمْ بعدُ منه بشكلٍ كافٍ ذلك الأمرَ الجبّارَ: وهو أنّ على الحقيقة أن تُعاد. فالحقيقة لا تصبح «بائدةً» لمجرّد أنّها قيلتْ مرّةً. لذا واصِلْ تكرارها، ولا يهمُّكَ مَنْ استمعَ وَمَنْ لم يَسْتمعْ إليها. إنّ تشومسكي يَعْلم أنّ وسائل الإعلام وغيرَها من مؤسّسات السلطة هي من القوّة بحيث لا يكفي قولُ الحقيقة مرةً واحدةً، بل عليكَ أن تكرِّر حقائقَ متنوِّعةً لتُثْبِت النقطةَ نفسَها.

سامحْني في أن أقول أمرًا ـ والأرجحُ أنّ تشومسكي لا يحبّ ما سأقوله لأنّه رجل علمانيّ جدّاً ـ وهو أنّ قوّةَ التكرار عنده تُشْبه ترنيمةَ الصوفيّ. فللمتصوفة قانون: وهو أن يكتشفوا مبدأً، فيكرروه. الفارق أنّ مبدأَهم روحانيّ، وأما مبدأُ تشومسكي فعلمانيّ. مبدأُهم كان يَهْدف إلى الخلاص، وأمّا مبدأه هو فيَهْدف إلى التحرير. إنّ قوّة التكرار لهي قوّةٌ فائقة حقّاً.

ثالثًا، الاستقلال. فتشومسكي ليس تروتسكيّاً ولا لينينيّاً ولا ماويّاً. إنّه فوضويّ إنسانيّ يؤْمن بأنّ سلطة الدولة المتركّزة في أيدٍ قليلة ستُنتج المظالمَ.

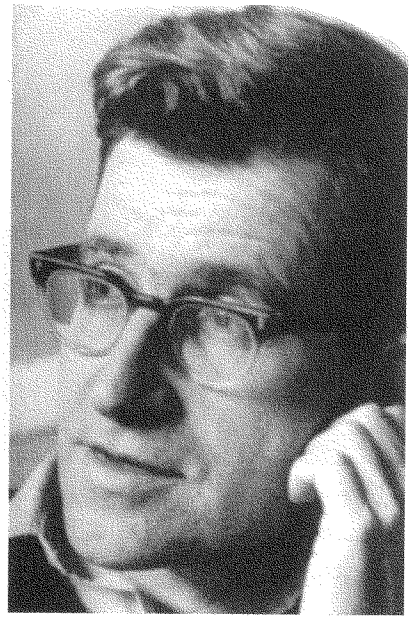

تشومسكي لم يتلكّأْ يومًا، ولم يتذبذبْ يومًا

إدوارد سعيد هو الآخر شخص تفاعلتَ وإيّاه عبر السنوات. متى التقيتُما أولاً؟

في أوائل عام ١٩٦٨ نَشَرَ إبراهيم أبو لُغُد مجلةً اسمُها **أراب أفيرز** [شؤون عربيّة]. وقد سحرتْني فيها مقالةٌ استثنائيّةٌ في جودتها. كانت بقلم إدوارد سعيد، وعنوانُها: «العربيّ مصوَّرًا [أو صورةُ العربيّ].» وهي عملٌ لافتٌ في إعادة البناء النقديّ لما ارتكبه الإعلامُ والخطابُ السياسيُّ عن الحرب العربيّة ـ الإسرائيليّة لعام ١٩٦٧ بحقّ العربيّ إنسانًا وبحقّ العرب شعبًا. وربَطَ سعيد هذا الأمرَ بالخطاب المعادي للساميّة في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، خالصًا إلى أنّ العربيّ اليوم، والفلسطينيّ بوجه خاص، قد غدا صورةً باهتةً عن اليهوديّ بالأمس.

اتصلتُ بإبراهيم أبو لُغُد وسألته: «مَنْ هذا الرجل؟» قال: «إنّه شاب، من عمرِكَ تقريبًا، يعلِّم الأدبَ الإنكليزيّ في جامعة كولومبيا.» قلتُ: «إذا رأيتَه أخبِرْهُ أنّني أحببتُ مقالتَه حقّاً.»

التقينا، أنا وإدوارد، عام ١٩٦٨. وقد استدعيتُ هذه الحادثة في مقدّمة كتابِكَ المكوّن من مقابلات أجريْتَها مع إدوارد.*

المسألة الفلسطينيّة

تلك كانت فترةً من النشاط الزائد.

كان هناك اجتماعٌ كبير نظّمه العربُ الذين يعيشون في الولايات المتحدة، بعيْد نشوء منظمة التحرير الفلسطينيّة (م. ت. ف). كانت المنظمة قد صدّت هجومًا إسرائيليّاً على مخيَّم الكرامة للاجئين الفلسطينيّين في الأردن. وقد اكتسى ذلك النصرُ الثانويُّ في معركةٍ ثانويّةٍ معنًى كبيرًا جدّاً في المشاعر العربيّة والفلسطينيّة، لأنّه جاء عقب الهزيمة الفائقة التي مُنِي بها العربُ في حرب ١٩٦٧، وغَدَتْ آمالُ الشعب الفلسطينيّ الكبيرة مُعلَّقةً بمنظمة التحرير بوصفها حركةَ تحريرٍ مسلّحةً. وقد شهدتْ تلك السنةُ أيضًا ذروةَ الحرب الڤيتناميّة، وبلغ الكفاحُ المسلَّح أوجَ فِتْنته في الدوائر العالمثالثيّة واليساريّة حول العالم.

آنذاك دعاني بعضُ الطلبة العرب لإلقاء الخطاب الرئيسيّ في المؤتمر. وكان بعضُ قادة م. ت. ف. حاضرين أيضًا. فطرحتُ أنّ الكفاح المسلّح مسألةٌ ألْصَقُ بالتنظيم منها بالأسلحة، وأنّ كفاحًا مسلّحًا

* ـ لدايڤيد برسميان كتابٌ من المقابلات التي أجراها مع إدوارد سعيد وعنوانه: **القلم والسيف**. (م)

ناجحًا هو الذي يواصل التفوُّقَ على العدو بإدارة الصراع لا بالقتال، وأنَّ مهمة التفوُّق الإداريّ out-administration إنَّما هي مهمّةُ التفوُّق على العدوّ بالشرعيَّة out-legitimizing. وطرحتُ أخيرًا أنَّ التفوُّق الإداريّ يَحْدث حين تحدِّدُ التناقضَ الرئيسيَّ لدى عدوِّكَ، وتَكْشفُ هذا التناقضَ لا أمام ناظريْكَ فقط ـ وهو ما لا تحتاج إلى فعله كثيرًا ـ بل أمام العالم أجمَع، والأهمُّ أن تَكْشفه أمام شعب البلد المعادي نفسِه.

وقلتُ أيضًا إنَّ التناقض الأساسيَّ لدى إسرائيل هو أنَّها أُنشِئتْ رمزًا لمعاناة البشريَّة، ولكنْ على حساب شعبٍ آخر بَرَاءٌ من دم [اليهود]. وقلتُ إنَّ هذا هو التناقض الذي ينبغي عليكم أن تُبْرِزوه، ولن تُبْرزوه بالكفاح المسلَّح، بل أنتم في الواقع تَكْبحون هذا التناقضَ لدى إسرائيل بانتهاج الكفاح المسلَّح، [لأنَّ] المنظَّمات الصهيونيَّة الإسرائيليَّة ستواصل تصويرَ اليهود ضحايا للعنف العربيّ.

إنَّ ما يثيرني هو أن تَطْرحَ ذلك في هذا المؤتمر، علمًا أنَّك ذو تجربةٍ حسيَّةٍ في الجزائر، حيث قضى أكثرُ من مليون جزائريّ في الكفاح الثوريّ!

نعم، ولكنَّ ذلك هو سببُ طرحي بالتحديد! فلو لم أمرَّ بالتجربة الجزائريَّة لما توصَّلتُ إلى ذلك الاستنتاج. فبعد أن رأيتُ ما رأيتُ في الجزائر لم يَعُدْ في وسعي أن أُرَنْطِقَ الكفاحَ المسلَّح. لقد كانت خسائرُ شعب الجزائر كبيرةً جداً. صحيحٌ أنَّه وافَقَ على دفع الثمن، ولكنَّه كان باهظًا. كما أنَّني عِلَمْتُ ما لا يُقِرُّ به كثيرٌ من الناس اليوم، وهو أنَّ الجزائريِّين خَسِروا الحربَ عسكريّاً ولكنَّهم ربحوها سياسيّاً. فقد نجحوا في عزل فرنسا أخلاقيّاً. إذنْ، المهمةُ الأساسيَّةُ للكفاح الثوريّ هي بلوغُ مرحلة العزل الأخلاقيّ للخَصْم في عينه هو، وفي عيون العالم أجمع.

بعد أن رأيتُ ما رأيتُ في الجزائر لم يَعُدْ في وسعي أن أُرَنْطِقَ الكفاحَ المسلّح

فمثلاً قلتُ في عام ١٩٦٨: «إنَّها اللَّحظة المواتية لتُعِدُّوا السُّفنَ في قبرص، ولتُعِدُّوا القواربَ في لبنان، ولتقولوا: 'لن نُدمِّر إسرائيل، ليس هذا قَصْدَنا، نريد أن نَرْجع إلى بيوتنا فقط.' اقلبوا رموزَ الخروج [العِبْريّ] Exodus، إمْتَحِنوا إنْ كان الإسرائيليُّون في وضع إغراقِ بعضِ السفن، والأرجحُ أنَّهم سيفعلون. دعوهم يفعلوا ذلك. بعضُنا سيموت. فلنمُتْ.» بعد أن انتهيتُ كان هناك عدمُ ارتياحٍ واضحٌ لدى الطلاّب العرب الشباب. كانوا مصدومين، ولسانُ حالهم: ها هو الخبيرُ في حروب العصابات، والرجلُ القادم من الجزائر، والقائدُ المعادي لحرب قيتنام، يَطْرح النقيضَ تمامًا لما نُؤْمن به! ولكنَّهم كانوا شديدي اللطف، فلم يقاطعْني أحدٌ بصيحات الاستهجان. لم يفعلوا شيئًا من هذا القبيل، غير أنَّه كان ثمَّة بردٌ. وإذا برجلٍ يَصْعد إليّ ويقول: «أنا إدوارد سعيد، أريد أن أشكرَكَ على ما فعلتَه.»

علمتُ من مقالته أنَّني قابلتُ للتوّ شخصًا ذا عقلٍ حيّ وجديد. ومنذ ذلك الوقت ونحن صديقان حميمان جداً.

فَلأُتابع النقطةَ التي كنتَ تَطْرحها في مؤتمر ١٩٦٨ للعرب الأميركيِّين، وهي أنَّ على نشاطات الصراع التحرُّريّ أن تَعْزل الخصمَ أخلاقيّاً. سأُسلِّمُ لك بذلك، مع شرطٍ واحد: وهو أنَّ على الخصم أن يكون مويِّدًا ـ على الصعيد الخطابيّ على الأقل ـ للتقاليد الليبراليَّة الديموقراطيَّة.

من الواضح أنَّك لا تستطيع أن تَعْزل أخلاقيّاً نظامَيْ هتلر أو ستالين. إنَّ استراتيجيَّة العزل الأخلاقيّ تَفْترض أنّ الخصم قد أَسْندَ شرعيَّتَه نفسَها إلى أُسسٍ أخلاقيَّة. غاندي فَهِمَ هذا جيِّدًا بالنسبة إلى الكولونياليَّة البريطانيَّة؛ فقد فَهِمَ تناقضَها وهو أنَّها كانت تبرِّر نفسَها بحسب المبادئ الليبراليَّة ولكنَّها تَنْتَهك هذه المبادئ. لقد وضع غاندي الإمبريالية البريطانيَّةَ رأسًا على عقب.

(...)

أَبْلسةُ الإسلام

تغطيةُ وسائل الإعلام [الأميركيَّة] للأصوليَّة الإسلاميَّة تبدو انتقائيَّةً جداً. إذ إنَّ هناك أنواعًا محدَّدة لا تتمّ مناقشتُها أبدًا [...] الأميركيُّون يسمعون الكثيرَ عن حزب اللّه وحركة

حماس، ومجموعاتٍ في مصر مثل «الإخوان» المسلمين.

(...) على فعلى امتداد سنوات الحرب الباردة، بدءًا من العام ١٩٤٥ حين وَرثت الولاياتُ المتحدةُ دورَها قوّةً عظمى، وهذه البلادُ ترى الإسلامَ المناضلَ militant بمثابة ثقلٍ مقابلٍ للأحزاب الشيوعيّة في العالم الإسلاميّ. إذ خلال هذه الفترة بكاملها لم يكن الإخوانُ المسلمون في مصر أعداءً للولايات المتحدة. وفي السودان عَزّزت الحكومةُ الأميركيّةُ ودَعمت النظامَ الإسلاميَّ، الذي هو في سدّة الحكم اليوم. وكان العقيد جعفر النميْري متحالفًا مع الحركة الإسلاميّة في السودان وصديقًا لها.

إنّ رافعتيْ أميركا الأساسيّتَيْن اللتيْن بَوّأتاها مرتبةً أعلى من أوروبا الشرقيّة وآسيا ـ وأعني المظلّةَ النوويّة والتفوُّقَ الاقتصاديّ ـ قد ضَعُفَتا بشكلٍ حادّ مع بداية السبعينيّات من القرن العشرين. فراحت الولاياتُ المتحدة تَبْحث عن رافعات جديدة تجعلها تتفوّق على حلفائها. وهكذا اختارت الشرقَ الأوسط لأنّه المكان الذي تأتي منه مصادرُ الطاقة للاقتصاديّات الصناعيّة في اليابان وأوروبا. ذلك أنّ نفوذًا أميركيّاً راسخًا في هذه المنطقة، ولا يتحدّاه قوّةٌ، قد يتحكّم بالأسعار ويبيّن لأوروبا واليابان أنّ «باستطاعتنا أن نعطيَكم نفطًا رخيصًا، وباستطاعتنا أن نجعل نفطَكم باهظًا أيضًا. فنحن الذين نُمْسك بشريان حياتكم الاقتصاديّ.»

كان ذلك زمنَ «عقيدة نيكسون،» ألاّ وهي استخدامُ القوى الإقليميّة لتكون شرطيّاً يَضْبط المنطقةَ لصالح الولايات المتحدة. وقد اختارت الولايات المتحدة في الشرق الأوسط كلاً من إيران وإسرائيل للقيام بهذه المهمّة، وكانتا تُسمّيان في البنتاغون على امتداد أكثر سنوات السبعينيّات من القرن العشرين «عَيْنَيْنا في الشرق الأوسط.» ولكنْ في عام ١٩٧٨ سَقَطَ شاهُ إيران تحت ثقل عَسْكرته، بعد أن أخذ ـ أو ربّما **لأنّه** أخذ ـ حوالى ٢٠ بليون دولار قيمة معدّات عسكريّةٍ من الولايات المتحدة. وهدّدتِ الثورةُ الإسلاميّة عام ١٩٧٩ المصالحَ الأميركيّةَ تهديدًا عميقًا، وتجسّدَ هذا التهديدُ في شكلٍ أبشع أثناء أزمة الرهائن [في السفارة الأميركيّة].

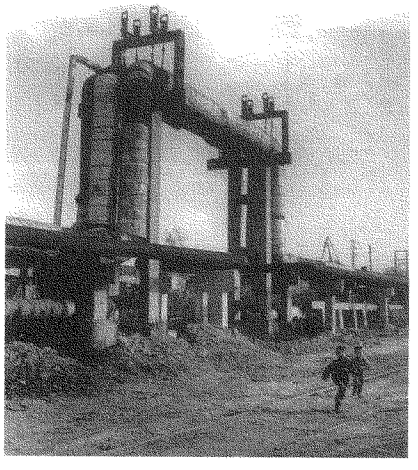

إنّ نفوذًا أميركيّاً راسخًا في الشرق الأوسط قد يتحكّم بأسعار النفط وبحياة اليابان وأوروبا

ولكنْ، ويا للمفارقة الشديدة، حدث في العام التالي أمرٌ معاكسٌ تمامًا، إذ تدخّل الاتّحادُ السوفياتيّ في أفغانستان. وفي باكستان شَجّعَ ديكتاتورٌ أصوليٌّ إسلاميٌّ، بمساعدة المخابرات المركزيّة الأميركيّة، مقاومةً أصوليّةً إسلاميّةً ضد السوفيات في أفغانستان. فبتّ إزاء أصوليّين إسلاميّين من نوعية متشدّدة حقّاً: هم «المجاهدون» في أفغانستان، الذين يتحدّوْن «إمبراطوريّةَ الشرّ،» وراحوا يتلقّوْن أسلحةً ببلايين الدولارات من الولايات المتحدة وحدها بين عاميْ ١٩٨١ و١٩٨٨. زدْ على ذلك دعمًا إضافيّاً لهم من السعوديّة، وبتشجيعٍ أميركيّ. وجَعَلَ رجالُ المخابرات الأميركيُّون يَجُولون العالَم الإسلاميّ ليجنّدوا الناسَ لـ «الجهاد» في أفغانستان، لأنّ الولايات المتحدة اعتَبرتْ أنّ الفرصة غدت سانحةً لتعبئة العالم الإسلاميّ ضد الشيوعيّة. واستُغلّت الفرصةُ بتجنيد «مجاهدين» من الجزائر والسودان ومصر واليمن وفلسطين. لقد جاء المجاهدون من كل مكان، وتلقّوا التدريبَ من المخابرات المركزيّة الأميركيّة، كما تلقّوا السلاحَ منها أيضًا. وكنتُ قد قلتُ في إحدى كتاباتي إنّ مفهوم «الجهاد» بوصفه «كفاحًا عادلاً» لم يوجد في العالم الإسلاميّ منذ القرن العاشر، إلى أنْ أَحْيَتْه الولاياتُ المتحدة أثناء «جهادها» ضدّ الاتّحاد السوفياتيّ في أفغانستان!

ومنذ ذلك الحين تمّ في أفغانستان تدريبُ معظم العناصر الإسلاميّة الناشطة، بمن فيهم أولئك الموجودون في إسرائيل والجزائر ومصر. ويسمّي رجالُ المخابرات المركزيّة الأميركيّة صنيعَهم هذا «الهجوم الإسلاميَّ المضادّ.»

إنّ هذه أمورٌ لا تريد وسائلُ الإعلام الأميركيّة أن تتطرّق إليها. وكتّابُ الأعمدة الأربعة المخصّصون للشؤون الخارجيّة في جريدة **نيويورك تايمز** ليسوا مؤهّلين، ولا يريدون أن يكونوا مؤهّلين، للتعليق على هذه الحقائق.

ما كانت الآثارُ الجانبيّة التي خلّفها الدعمُ الأميركيّ للمجاهدين في المجتمع الباكستانيّ؟

الأثر الأول هو الانتشار الهائل للمخدّرات والسلاح. ذلك أنّ ما يَقْرب من ١٠ بلايين دولار هو قيمةُ الأسلحة التي ضُخّتْ إلى باكستان وأفغانستان. نصفُ هذه القيمة على الأقلّ ارتدّ وصار جزءًا من

التجارة العالميّة، وانتهى جزءٌ كبيرٌ منه في باكستان. وهكذا صرتَ حيال وضعٍ في باكستان حيث واحدٌ من بين ثلاثة رجال يكون مسلَّحًا بالأسلحة الأوتوماتيكيّة وبنادق الكلاشينكوف وقاذفاتِ الصواريخ. وما كان في بادئ الأمر جرائمَ صغيرةً صار الآن جرائمَ كبيرةً، لأنّ اللصوص الصغار باتوا مسلّحين بأسلحة تؤدّي إلى أعمال قتلٍ إنْ شعروا أنّهم مهدَّدون. في العام ١٩٧٩، مع حلول الثورة الأفغانيّة، كان هناك ما يقدَّر بـ ١١٠ آلاف مدْمن مخدِّرات في باكستان، معظمُهم مدمنُ أفيونٍ، وبعضُهم مدمنُ حشيشة. وأمّا اليوم فلدينا ٥ ملايين مُدْمن. وأصبح الأفيونُ تجارةً كبيرةً عَبْرَ باكستان، ويأتي من أفغانستان وإيران، ولدينا تجارةٌ بالمخدِّرات الأفغانيّة تقدَّر بـ ٤ بلايين دولار.

إذن، إلى بلدٍ كانت صادراتُه تَبْلغ جميعُها ٦ بلايين دولار قبل كلّ هذا، أَدْخلوا ٤ بلايين دولار قيمةَ التجارة بالمخدِّرات! وهكذا خَلَقوا في باكستان طبقةً بأكملها من تجار المخدِّرات الأثرياء الذين يَرْشون هذا السياسيَّ هنا، وذاك الإداريَّ هناك، وذلك المسؤولَ عن المرفإ هنالك. لقد أصبح النظامُ السياسيُّ لباكستان بأجمعها متوشِّجًا بمافيا المخدِّرات. صحيح أنّ الحال لم تَبْلغ في سوئها ما بلغَتْه في كامبوديا، ولكنّها قريبةٌ جداً من ذلك.

أما الأثر الثالث فلعلّه الأخطر. وذلك أنّ باكستان مجتمعٌ شديدُ التنوُّع في عناصره البشريّة. فثمّة ستُّ مجموعات إثنيّة تتعايش بمزيج من العداء والتعاون. ويتشكّل العداءُ من أمور تجري كالتالي: «أنت تتكلّم البالوشية. أنا أتكلّم الأوردية. ولدانا يَلْعبان. تخاصما. ابني ضَرَبَ ابنَك. فتجادلنا أيُّ الولديْن أسوأ.» في السابق كان الأمر لا يعدو أن يكون جدالاً، أما الآن فمِنَ الممكن أن يتطاير الرصاصُ. إذنْ، ما كان ـ بسبب الخلافات الإثنيّة في مجتمعنا ـ نقاشاتٍ ثانويّةً محليّةً شارعيّةً، قد بات الآن يُصنع بالبنادق. وبعد فترة ستتراكم هذه الأمورُ الصغيرة وتَخْلق حربًا إثنيّة.

(...)

الطالبان

أَنتقل إلى أفغانستان وإلى الوضع المتفاقم هناك. كنتَ قد طرحتَ في إحدى مقالاتك أنّ حركة طالبان ذاتُ ارتباطاتٍ لا بباكستان وحدها بل بالولايات المتحدة أيضًا.

لقد عانت أفغانستان تجاهلاً إجراميّاً من طرف الولايات المتحدة وإعلامها. ففي عاميْ ١٩٧٩ و١٩٨٠، حين بدأ الشعبُ الأفغانيُّ مقاومَته للتدخُّل السوفياتيّ، تحرَّكتْ كلٌّ من أميركا وأوروبا لدعمه. وكانت [المقاومة] حدثًا كبيرًا جداً بالنسبة إلى الإعلام، حتى إنّ محطة CBS دَفَعت الأموالَ لإخراج معركة تُذاع «خصّيصًا» من هذه المحطة. كانت أفغانستان على وسائل الإعلام كلَّ يوم. ثمّ اختفت من الأخبار في اليوم الذي انسحب فيه السوفيات. وبعدما تمّ التخلّي عن أفغانستان في الإعلام، تخلّت عنها الحكومةُ الأميركيّة، والأكاديميُّون الأميركيُّون، ونتيجةً لذلك تخلّى عنها الشعبُ الأميركيُّ أيضًا. إذنْ، أولئك الناس الذين حاربوا عن الغرب بأموال الغرب وبأسلحة الغرب، فَشَوَّهوا أنفسَهم في أثناء ذلك وشَوَّهوا باكستانَ وأَسْهموا في موت الاتحاد السوفياتيّ، أولئك الناسُ وَجدوا أنفسَهم وقد هَجَرَهم الجميعُ تمامًا بعد الحرب الباردة. ووسط هذا الفراغ صَعَد الطالبان.

شرع المجاهدون الأفغان بالتقاتل. كانوا كلُّهم محاربين ومهرِّبي مخدِّرات في الوقت نفسه، وتَعْرفهم المخابراتُ المركزيّةُ الأميركيّة مهرِّبي مخدِّرات. كانت هناك عشرةُ فصائل تتبادل إطلاقَ النار، ثم حدث شيءٌ جديد؛ فقد سَقَطَ الاتحادُ السوفياتيّ، واستقلّت الجمهوريّاتُ التي كانت تكوِّنه، ومن بينها ستُّ جمهوريّات في آسيا الوسطى: أوزبكستان وكازاخستان وتُرْكمنستان وطاجيكستان وكرغزستان وأذْربيجان. وهذه الجمهوريّات الستّ، التي غالبيّةُ سكّانها مسلمون، قريبةٌ جداً من أفغانستان أو تتاخمها، وصَدَف أيضًا أنّها جمهوريّاتٌ غنيّةٌ بالنفط والغاز. وكان نفطُها وغازُها قبل تلك الفترة يمرّ عبر الاتّحاد السوفياتيّ، وأمّا بعدها فقد نشأ نظامٌ جديد. فكيف سيوزَّع النفطُ والغازُ إلى العالم؟ هنا تدخّلت الشركاتُ الأميركيّة!

من الواضح أنّ الشركات الأميركيّة تريد أن تُمْسك بالنفط والغاز. فبعد الحرب الباردة مَنْ تراه سيتحكّم

الدعم الأميركيّ للمجاهدين الأفغان أدّى إلى انتشار هائل للمخدّرات والسلاح في باكستان

بأيّ مصادر، وعلى حساب مَنْ، وبأيّ أسعار؟ هنا بدأتْ شركاتٌ مثل «تَكْساكو» و«أموكو» و«يُونوكال» بالذهاب إلى آسيا الوسطى لإحْكام القبضة على حقول النفط والغاز. ولكنْ كيف ستُخْرِج هذه الشركاتُ النفطَ والغاز؟ ثمّة إمكانيّتان: عبر تركيا، ومرورًا بأفغانستان إلى باكستان. وأمّا الإمكانيّة الثالثة فعَبْرَ إيران، ولكنّ الشركات لا تريد أن تضع أيّ خطوط أنابيب في إيران لأنّ إيران خصمٌ لأميركا. ولهذا أصبحتْ باكستان وأفغانستان المكانيْن اللذيْن يُرجَّح أن تمرّ بهما الأنابيبُ. وبهذا تَقْطع الشركاتُ الطريقَ على الروس.

هنا قام الرئيس كلينتون بإجراء اتصالات شخصيّة برؤساء جمهوريّة أوزبكستان وكازاخستان وطاجيكستان وأذربيجان، يحُثُّهم فيها على توقيع اتفاقيات مدّ خطوط أنابيب تَبْلغ قيمةُ مجموعها بلايينَ الدولارات. وكان مُعَدّاً لهذه الأنابيب أن تَعْبر تركيا باتجاه أفغانستان وصولاً إلى باكستان، ثم تَنْقل النفطَ إلى ناقلاتٍ تَنْتظر على المرافئ. ولمّا كانت هذه الأنابيب ستمرّ في أفغانستان فقد اختارت كلٌّ من باكستان والولايات المتحدة أكثرَ الخَلْق إجرامًا، وأكثرَ المجموعاتِ الإسلاميّة الأصوليّة جنونًا، أي الطالبان، من أجل تأمين سلامة تلك الأنابيب.

الطالبان ضدّ النساء. وثمّة موظّفون كبارٌ في الولايات المتحدة يزورونهم ويتحدّثون معهم. والانطباعُ العام في المنطقة هناك هو أنّ الولايات المتحدة تَدْعمهم.

كيف تعلم أنّ موظفين كبارًا من إدارة كلينتون يلتقون الطالبان؟

من سطور غيرِ هامّة على الإطلاق في جريدتَيْ **نيويورك تايمز وواشنطن بوست**. لا معلومات خاصة بي في هذا الموضوع، بل هي حقائقُ منشورةٌ لكنّها مكتوبة بحيث إنّك لن تلتقطها إلاّ إذا رحتَ تراقب الأمورَ عن كثب.

ولماذا تَدْعم الولاياتُ المتحدة مَنْ تصفهم بأنّهم أكثرُ التشكيلات جنونًا، وعداءً للمرأة، وأصوليّةً، من أجل خدمة مصالحها الجيوسياسيّة؟ ألم تكن هناك مجموعاتٌ أخرى متوفّرة؟

لقد اعتُبر الطالبان أكثرَ مَنْ يُعْتَمَدُ عليهم، وربّما كان ذلك لسببٍ جيد. ففي أفغانستان أربعُ مجموعات إثنيّة كبيرة. هناك الأوزبكستانيُّون الذين يعيشون في شماليّ البلاد قرب أوزبكستان. وهناك الهزاريُّون، وهؤلاء يتحدّثون الفارسيّة وقد تمارس إيرانُ عليهم تأثيرًا، ولذا لا يُمْكن «الاعتمادُ» عليهم تمامًا. وهناك الطاجيكستانيُّون الذين يتحدّثون الفارسيّةَ أيضًا، وهم تحت التأثير الروسيّ، ولكنْ لأنّهم يتحدّثون تلك اللُّغة فإنّ التأثيرَ الفارسيّ يمكن أن يكون قويّاً عليهم أيضًا.

وأمّا الطالبان فهم من مجموعة إثنيّة پاختونيّة. والپاختون هم الأكثريّة، ولهم حضورٌ قويّ في باكستان (حوالى ١٥ مليونًا). وباكستان حليف قديم للولايات المتحدة، وقد امتُحِنتْ في ولائها هذا، ومن الأفضلِ كثيرًا أن توضَعَ خطوطُ الأنابيب في عهْدة أشخاصٍ تستطيع باكستان أن تمارِسَ بعضَ التأثير فيهم دون أن يكون لإيران في الوقت نفسه شيءٌ من ذلك.

الپاختون من المسلمين السُّنّة. الطاجيكستانيُّون بعضُهم سُنّةٌ وبعضُهم شيعة. الهزاريُّون شيعةٌ كلُّهم. الأوزبكستانيُّون سُنّة، ولكنّ ولاءاتهم مقسّمة ولم «يُمتَحَنوا» قطُّ. إذن، ثمّة اعتباراتٌ إثنيّة كثيرة، وسياساتٌ إثنيّة، وروابطُ تاريخيّةٌ، كلُّها ذاتُ علاقة [باختيار الپاختون دون غيرهم لتأمين سلامة الأنابيب].

إنّ ما يهمّ الولاياتِ المتحدةَ ليس مَنْ هو أصوليّ ومَنْ هو تقدُّميّ، ومَنْ يعامِلُ النساءَ بلطف ومَنْ يعاملهنّ بسوء. ليست هذه هي المسألة. المسألة هي مَنْ يَضْمن أكثرَ مِنْ غيره سلامةَ موارد النفط التي تريد الولاياتُ المتحدة أو شركاؤها السيطرةَ عليها.

أحدُ قادة المقاومة الأفغانيّة ضدّ الاحتلال السوفياتيّ كان قلب الدين حِكْمتيار، وقد ارتبط اسمُه على الدوام بتجارة السلاح وتهريب المخدِّرات. أتَمْلك أيّ معلومات عنه؟

لقد التقيتُه عدّة مرات. لا أعتقد أنّه أسوأ من الآخرين؛ إنّهُ قاتلٌ أكثرُ من غيره بقليل! وهو أيضًا أكثرُ

اختارت الولايات المتحدة وباكستان أكثر المجموعات الأصوليّة جنونًا وإجرامًا، أي الطالبان، من أجل تأمين سلامة أنابيب النفط

تقدُّميّة، وعصريّةً، وتحسُّسًا بقضايا النساء من الطالبان مثلاً.

الطالبان هم أكثرُ المجموعات التي يُمْكن أن تجدها تخلُّفًا. مركزُ قوّتهم هو قانداهار، وهي مقاطعةٌ جنوبيّةٌ في أفغانستان. العامَ الماضي قضيتُ أسبوعيْن هناك. ذاتَ يوم سمعتُ طبولاً وأصواتًا خارج المنزل الذي كنتُ أَنْزل فيه. ركضتُ خارجًا لأستطلعَ ما يحدث في ذلك البازار المهدَّم الذي دمَّرتْه القذائفُ والمعاركُ أثناء الحرب. كان ثمّة صبيٌّ لا يمكن أن يكون قد تعدّى الثانيةَ عشرةَ من عمره. كان رأسهُ حليقًا، وثمّة حَبْلٌ حول عنقه كانوا يجرُّونه به في البازار. وهناك رجلٌ خَلْفه يحمِل طبلاً، ويَقْرعه ببطء: دامْ، دامْ، دامْ. والولدُ يُجَرُّ في الطريق. سألتُ: «ماذا فعل؟» قال أناسٌ إنَّه قُبِض عليه متلبِّسًا بجريمة. وفكَّرتُ: «هذا غلام في الثانية عشرة، فماذا يمكن أن يكون قد فَعَلَ؟» قالوا: «ضُبِطَ متلبِّسًا بجريمة لعبِ الكرة.» قلتُ: «أيُّ كرة؟» «كرة تنس.» «وما الضررُ في ذلك؟» «إنَّه ممنوع.»

ذهبتُ لمقابلة أحد قادة الطالبان. قال: «لقد مَنَعْنا الصبيانَ مِنْ لَعِبِ الكُرة.» سألتُ لماذا. قال: «لأنَّ الصبيانَ حين يلعبون الكرةَ فذلك يشكِّل إغراءً غيرَ مناسب للرجال!» إنَّ المنطق الذي يدفعهم [الطالبان] إلى ستر النساء من خلف الحجاب وسجنهنّ داخل البيوت هو الذي يجعلهم أيضًا يمنعون الصبيانَ من لعب الألعاب. إنَّه ذلك النوع من الجنون!

وذاتَ مرّة وجدتُ الحارس، حيث كنتُ أُقيم، يبكي وكان مهتاجًا جداً. سألتُه: «ماذا حدث لك؟» قال: «لقد أخذوا مذياعي.» قلتُ: «وماذا كنتَ تَفْعل بحقّ السماء؟ لِمَ أَخَذوا مذياعَكَ؟» قال: «كنتُ أستمع إلى مغنٍّ.» فالحال أنّ الموسيقى ممنوعة تحت حُكْم الطالبان. وفي رأيي أنّ الناس الذين يَمْنعون الموسيقى واللعبَ متخلِّفون خمسين سنةً ضوئيّةً عن النظام الإسلاميّ الإيرانيّ.

روبِنْ رافايل، مساعدُ وزير الخارجيّة لشؤون غربيّ آسيا، وموظَّفٌ معيَّنٌ، وزميلٌ لبيل كلينتون حين كان على مقاعد الدراسة، سافرَ على متن طائرة هيليكوبتر من إسلام آباد للقاء قادة الطالبان في قانداهار. إذنْ، دَعْهم [أي الأميركان] لا يُخْبروني شيئًا عن حقوق الإنسان في الصين دون غيرها من البلدان. إنَّ موظَّفي الحكومة الأميركيّة يكذبون حين يتحدَّثون عن حقوق الإنسان. إنَّهم مجموعة من المنافقين والكذّابين، ولا يمكنك أخذُهم على محمل الجدّ.

(...)

الدعامة الأساسيَّة للقوَّة الأميركيَّة في الشرق الأوسط ليست قوَّة إسرائيل، بل ضعف الأنظمة العربيَّة

إسرائيل وأميركا والعرب

سياسةُ الولايات المتحدة في الشرق الأوسط هي تنميةُ الأرصدة الاستراتيجيّة. وقد سمَّى ملفِنْ ليرد، وهو وزيرُ خارجيّة نيكسون، دولةَ إسرائيل «الشرطيَّ المحليَّ الذي يقوم بالدَّوْرية الميدانيَّة اليوميَّة» للعناية بأحوال المنطقة. إذا كان هذا صحيحًا، فلماذا بذلت الولاياتُ المتحدة كلَّ تلك الجهود من أجل إبعاد إسرائيل عن حرب الخليج [الثانية]؟

في الولايات المتحدة توصف إسرائيلُ باستمرار بأنَّها رصيدٌ استراتيجيّ. ولكنّي لا أرى أنَّها خدمتْ أيَّ رصيد استراتيجيّ، بل لقد تغلَّب الخطابُ الأميركيُّ في هذا الشأن على كل ذَرّةٍ من الحقيقة.

الجيش الإسرائيليّ أكثرُ قدرةً على الحرب من الفرنسيِّين أو البريطانيِّين، أو الصينيِّين أنفسهم، هذا إذا لم نكن نتحدَّث عن حرب بريَّة طويلة متطاولة. الصين تَمْلك بالطبع أراضيَ شاسعةً، وهي بلد مختلف تمامًا. إنَّ وجود قوّة إسرائيليَّة أمرٌ غيرُ قابلٍ للشكّ. ولكنْ أيُّ هدف تَخْدم هذه القوّة؟ فخلال حرب الخليج [الثانية] كان التحدّي الأعظم الماثل أمام السياسة الأميركيّة هو كيف تُبْعِدُ إسرائيلَ عن الحرب، بدلاً من أن يكون كيف تُدْخِلها في هذه الحرب. وكان الخوفُ الأعظم لدى المخطِّطين العسكريِّين الأميركيِّين هو أن يُجْبِرَ صدّام حسين إسرائيلَ على دخول الحرب... فأيُّ رصيد استراتيجيّ هي إسرائيل بعد هذا؟ إنَّ مثل ذلك الادِّعاء لا معنى له على الإطلاق.

إنَّ ما تقوم به إسرائيل فعلاً هو أن تُبْقي المنطقة ـ في بعض الجوانب ـ غيرَ مستقرَّةٍ أبدًا. البارحة فقط سمعتُ أنَّ الطائرات الإسرائيليَّة قصفتْ لبنان من جديد. يبدو الآن أنَّ الدعامة الأساسيَّة للقوّة الأميركيَّة في الشرق الأوسط ليست قوّةَ إسرائيل، بل ضعف الأنظمة العربيَّة. فالحال أنَّ في الشرق الأوسط اليوم أقليّاتٍ مسلَّحةً

تَحْكم أكْثريات (...). إنَّ هذه أنظمةٌ غيرُ آمنة. إنَّها تخاف من شعوبها أكثرَ من خوفها من القوى الأجنبيَّة. ولهذا فإنَّها ستتعاون مع الولايات المتحدة، وعند الضرورة مع إسرائيل، أيّاً كان الثمن. إذن، في الوقت الحاضر، القوَّة الأميركيَّة في الشرق الأوسط مستنِدَةٌ إلى الضعف العربيّ. ولكنْ إلى متى يستمرّ هذا الوضع؟

كيف ترى مستقبل إسرائيل؟

على المدى القصير، أراه باهرًا وجبّارًا كما يبدو. وأمَّا على المدى البعيد، فأراه شديدَ الظلام.

لِمَ تقول ذلك؟

إنَّ الحكومة الإسرائيليَّة ـ لدهشتي، والحقّ أنَّني لستُ مندهشًا جدّاً بل أعتقد أنَّه كان بإمكاننا أن نتوقَّع ذلك ـ قد أضاعت فرصتَها للسلام مع جيرانها العرب طوال السنوات العشر الماضية. فعلى امتداد ٤٥ عامًا تحدَّث المسؤولون الإسرائيليُّون عن رغبتهم في أن يُعْتَرَفَ بهم، وعن أنَّ تلك هي القاعدةُ الوحيدةُ للسلام. والآن معظمُ الحكومات العربيَّة، بالإضافة إلى م.ت.ف.، تُقرّ علنًا بحقّ إسرائيل في الوجود، وأزالت المقاطعةَ العربيَّةَ عنها (...) ومع ذلك يواصل الإسرائيليُّون أخذ الأراضي الفلسطينيَّة وبناءَ المستوطنات.

إنَّ سياسة الإسرائيليِّين هي إقناعُ العرب بأنَّه أيّاً كان ما يودّ أولئك أن يُعطوه لهؤلاء فإنَّهم يريدون السلامَ وفقًا لشروطهم هم: أيْ يريدون مزيدًا من الأراضي، ومزيدًا من الإذلال للعرب، ومزيدًا من التوسُّع. غير أنَّ ذلك لا يمكن أن يستمرّ على هذا النحو. فإسرائيل دولة صغيرة، تعدادُ سكَّانها ٥،٥ مليون نسمة، وأمَّا العربُ فكُثُر. صحيح أنَّهم في الوقت الحاضر ضعاف، بلا تنظيم، ولا معنويات، وتَحْكم بلادَهم مجموعةٌ من الأشخاص الذين يبيعونها؛ غير أنَّ هذا ليس وضعًا دائمًا. فيومًا ما سيكون على العرب أن ينظِّموا أنفسهم. وإذّاك ستجد تاريخًا مختلفًا يبدأ من جديد، ولن يكون هذا التاريخُ جميلاً. بل الحقّ أنَّه يُفْزِعني!

معظم الحكومات العربيَّة اعترفت بإسرائيل وأزالت المقاطعة العربيَّة عنها، ومع ذلك يواصل الإسرائيليُّون أخذ الأراضي الفلسطينيَّة وبناء المستوطنات

مَنْ أنت؟

كيف تُعرِّف سياستَكَ؟

إنَّها اشتراكيَّة وديموقراطيَّة. هذان هما التزاماي الثابتان. وأَقْصد بالديموقراطيَّة التزامًا أصيلاً بالمساواة، وحريةِ التعاقد، والفكر النقديّ، وخضوع الحكّام لمحاسبة المواطنين. وأَقْصد بالاشتراكيَّة أن يكون الناس هم المتحكِّمين بثروات الأمم لا الدولةُ أو الشركاتُ.

لقد سافرتَ مسافاتٍ بالغةَ الطول، من حيث عددُ الأميال ومن حيث الثقافةُ أيضًا. فقد نشأتَ في قرية في بيحار في الهند. ثم هاجرتَ إلى باكستان. وبعدها درستَ في پرنستون في الولايات المتحدة. ثم عملتَ في الجزائر أيّامَ الثورة. وعدتَ إلى الولايات المتحدة، وكنتَ ناشطًا في الحركة المعادية للحرب [ضدّ ڤيتنام]، ولديك وظيفةٌ أكاديميَّةٌ فيها. الآن تحاول أن تشيِّد في باكستان مؤسَّسةً تعليميَّةً مغايرةً للمؤسَّسات السائدة.* فما هي أفكارُك وتأمُّلاتُك إزاء هذه المسيرة الطويلة والمتنوِّعة إلى حدٍّ كبير؟

أيُّ خيارات كانت لديّ؟ اثنان بشكلٍ أساسيّ. وكان على كل أصدقائي منذ الطفولة أو على مقاعد الدراسة أن يختاروا واحدًا أيضًا. أَنْظُر إليهم اليوم فأَشْعر ـ بمعنًى ما ـ أنَّني غيرُ آسف لكوني لستُ في مكانهم. كان أمامي خيارُ أن أصبح أكاديميّاً عاديّاً، أو مديرًا لشركة، فيكونَ لي وجودٌ مريحٌ جدّاً ومُضْجِرٌ وأنانيٌّ وهادئ، عكسَ ما عشتُه وأعيشُه: من حياةٍ غنيَّةٍ جدّاً روحيّاً وثقافيّاً، وفقيرةٍ ماديّاً إلى حدٍّ ما. ولكنْ، أُنظرْ: لي أصدقاء من كالكوتا إلى كازابلانكا (الدار البيضاء)، ومن الجزائر إلى سان فرانسيسكو. وأَمْلك الرضى البسيطَ المتمثِّل في معرفتي أنَّنا حاولنا، وأنَّنا قمنا بأفضل ما عندنا ولم ننجحْ دائمًا، ولكنَّنا حاولنا أن نغيِّر حيث بدا التغييرُ ضروريّاً. لقد أخذتُ مقولةَ كارل ماركس القديمةَ على محمل الجدّ، وهي أنَّ وظيفةَ المعرفة هي الإدراكُ من أجل التغيير.

وماذا تُخْبر طلابك؟

لا أُخْبرهم شيئًا. أَعْتقد أنَّ حياتي ودروسي كلَّها تشير إلى عبرتَيْن: فَكِّرْ نقديّاً، وجازِفْ.

الولايات المتحدة

* ـ حاوَلَ إقبال أحمد أن يؤسِّس جامعةً في باكستان سمّاها «الخلدونيَّة» تيمّناً بابن خلدون. ولكنْ لم يُكتب له النجاح لأسباب عدّة، منها سياسةُ بناظير بوتو العدائيَّة تجاهه. (م)